

دخل لوهجته واختفى

شهادات

مشارك هو إيمانهم بالتراث وبالفن والجمال الذي سينتصر على العنف في النهاية. الحقيقة فقدنا علماً من أعلام الفن العربي.

* تشكيلي لبناني

الدمشقي أو البرليني

* بطرس المعزي

استطاع مروان قصاب باشي أن يدرج بسهولة عمله وبالتالي اسمه في حركة الفن المعاصر الأوروبي. وكما نعلم، فإن غربته كانت إرادية، وشبيهة بغربة أو هجرة كثيرين من المفكرين العرب القادمين للإقامة في أوروبا. هو الذي أتى إلى مدينة برلين، وهي تنفض عنها غبار الحرب العالمية الثانية، واستقر فيها منذ أواخر الخمسينيات. غير أن مروان يتميز عن الآخرين بأن عمله استطاع أن يتجذر أكثر في بلاد الغربية، في حين أن مبدعين آخرين لم يستطيعوا أن يتحرروا من سلسلة الأصول. نحن لا نرى في رسمه هذا الحنين التوكيدي، ولا هذه المرجعيات الغربية أو الفولكلورية. هو رسام قبل كل شيء، في لوحاته التصويرية أو في سلسلة الدمى أو أيضاً في هذه لوحات الوجوه أو وجهه حيث لا نجد سوى «الرسم».

بعضهم كالفنان والنقاد أسعد عرابي (خلال مقابلة أجريتها معه في باريس سنة 2000)، يعتبره رساماً برلينياً بامتياز، فيما يريد العرب والسوريون خاصة شد «اللحاف» إلى طرفهم ليكون فناناً سورياً، فتكون الوجوه تضاريس قاسيون والشام، والروح شرقية... وتظل أمور التقويم هنا راجحة برأينا لذلك الإرث البرليني بالطبع، وإن كان القلب والروح سوريين، دمشقيين بالتحديد حيث تشكل وعيه الأول بين بركة داره وفسيقساء جدرانها ونسيم أمسياتها، وهو يستمع مع إخوته إلى قصص من السير الشعبية من فم أبيه، تاجر الحبوب الدمشقي.

اكتشف مروان الشمس مجدداً في باريس منتصف السبعينيات. ذكرته بشمس دمشق التي كان يتنقل تحتها في ضواحيها ليرسم هناك. كان ذلك الاكتشاف قد أتى بعد سنوات برلينية ملبدة بالغيوم وسماء رمادية. ومن تأثير ماتيس لا من شمس مطلع شبابه، شهدت لوحة ألوانه قوة تعبيرية وسطوعاً بانحاً. ونلاحظ ذلك في لوحات الطبيعة الصامتة، وأيضاً في لوحات «الدمى» التي نفذها بألوان حيوية وزاهية أبرزت العناصر بنحو لافت بالنسبة إلى متابعي أعماله السابقة.

في ما يخص لوحات الدمى، يقول بعضهم إن الفنان يتذكر من خلالها السيدة «خدوج» التي كانت تتولى العناية به وإخوته عند غياب أمه عن الدار، وكانت تروي لهم قصص الجن الخيفة التي حملها معه بكوابيسها إلى ألمانيا. أما بعضهم الآخر، الذي لا يعرف قصة خدوج ووجهها الدميم كما يرد وصفها في كتاب ألفه عبد الرحمن منيف عن مروان، فيرى في الدمية سؤالاً آخر ويوسع التفسير بطريقة موحية: هل الدمية امرأة؟ أم طيف أم شبح؟ هل يبحث الفنان عن صورة أسطورة؟ كانت الدمية في كل الأحوال أكثر مرونة وطواعية من خدوج! هي تتغير مثل الطبيعة الصامتة وفق رغبة الفنان. مع ذلك، فهي تأخذ مواقف تجاه العالم، فقد مُثِّلت بألوان زاهية، وللمرة الأولى استخدم مروان الأحمر الفاقع في لوحاته. لكن الشكل عاد ليجد مع الوقت مظهر المشهد الطبيعي. كذلك، فإن الحميمية التي أوجدها بين شكل الدمى واللون كانت معبرة أيضاً.

* تشكيلي سوري



«الرجل الجالس» (1966)

العربي المعاصر، وتركت أثرها البالغ عند مجموعة كبيرة من الشباب المبدعين الذي تتلمذوا على يديه. لذا، يحق القول إنّه خسارة كبيرة على المستويين الإنساني والفني. أما إذا أردنا الدخول في مضامين الهاجس التعبيري كعني، فمن المؤكد أنّ مروان قصاب باشي كان حاملاً حقيقياً لكل هموم العرب وقضاياهم. هذا شيء واضح وجلي في لوحاته. وإن كان فناً تشكيمياً لافتاً، فإنه يحمل في طياته ووجوه كل مآسي الوطن العربي، لأن نتاجه كان يحمل مرارة معبرة. من دون أدنى شك، عكست هذه المرارة وضعنا بشكل صادق حتى أبعد الحدود. دعنا نترحم عليه ولا شيء يقال في هذا المقام أكثر من الأمنيات بالصبر لذويه، وأن تكون روحه في سلام أبدي وملكوت أفضل من عالمنا.

* تشكيلي لبناني

وجه الحضارة المشوّه

جميل ملاعب *

الوجه الذي يرسمه مروان قصاب باشي، هو وجه البشرية، وجه الحضارة المشوّه، وجه حضارة الإرهاب الذي يدك أوطاننا وشعوبنا وتفصيل بلادنا. هو اشتغل على تجسيد الإنسان البريء الذي لا يحمل صوتاً، فكان صوته، ولا يملك وسائل تقنية يتمكن من خلالها القتل والاحتلال وممارسة البشاعة ومحو وجوه الطبيعة والسلم العالمي. لذا، فقد كان مروان قصاب باشي كمن يطعن نفسه بسكين حادة وهو يرسم، كمن يقتل نفسه ليتساءل: لماذا يحلّ بنا كل هذا العنف.

هو بمثابة تجربة توازي تجارب إنكليزية كانت تجسّد ما تريد قوله بكومة قمامة على هيئة بشرية ورأس متفجّر. ظل مروان يركّز على هذا الموضوع، كإنسان عانى من خلال هجرته خارج سوريا حتى يعيش الحرية التي هو يريدتها في بلد يحمل قيمة للإنسان وقيمة للفن وقيمة لحرية التعبير. وربما كان مروان قد عاش في بلده سوريا تجارب مختلفة حتى وصل إلى هذه الصيغة بالرسم، ومثله لا يمكنه أن يشارك في حروب ولا أن يحمل سلاحاً. لذا، كان سلاحه ريشته، ودمه هو اللون الأحمر، وجسده وصرخته هو الوجه الذي يصرخ.

كأنه يحمل جرّوحات كل العالم وكل مآسي الإنسان. أتمنى أن يعمّ السلم في سوريا حتى يكرّم مروان قصاب باشي ويكرّم معه الراحلان نذير نبعة ونذير إسماعيل. هؤلاء الثلاثة يجتمعان برابط وقاسم

سيظلّ بيننا

* أندريه صفيّر

أنا أعمل مع مروان قصاب باشي منذ عام 1989. الكلمات قاصرة عن التعبير عن كمّ الحزن الذي يعتريني. سفتقده كثيراً، ومروان لا يموت، هو من أهم الفنانين عربياً وعالمياً. أعماله ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى العالم كله. منذ أربع سنين، وجدت هذه الأعمال طريقها إلى المتاحف المهمة مثل «متحف شيكاغو»، و«تيت مودرن» في لندن، والمتاحف الألمانية، و«متحف غوغنهايم»، وهو كان محظوظاً برؤية هذا الشيء، فقد انتظر وقتاً طويلاً حتى يأتيه الاعتراف ويرى التقدير الذي يستحقّه. مروان توفي، لكنه سيظلّ بيننا بأعماله.

* صاحبة «غاليري صفيّر زملر» (هامبورغ/ بيروت) التي تعرض أعماله.

ابن تلك اللحظة التاريخية

* سمير الطايغ *

مروان هو واحد من الفنانين العرب الذين أسسوا لحركة الفنون التشكيلية الحديثة. هذه الحداثة تشكل منعطفاً مهماً ومثيراً في الحركة الفنية أو في الحداثة العالمية التي عرفتها أوروبا منذ أواخر القرن التاسع عشر. وفي منتصف القرن العشرين، حققت هذه الحداثة الغربية انتصاراً على ذاتها عندما انفتحت على الحضارات غير الأوروبية، واعتبرت أنّ التراث الحضاري للشعوب الشرقية أو الأفريقية أو من أميركا اللاتينية تراث إنساني. من هذا الباب، دخل مروان قصاب باشي هو وكوكبة من الفنانين التشكيليين العرب والسوريين واللبنانيين والمصريين والسودانيين والمغاربة، إلى قلب الحداثة الغربية، مع نفس أو صفات أو حضور شرقي عميق، بحيث استطاعوا أن يقفوا أمام الحركة الغربية موقف مساواة. فصحيح أن مروان هو فنان سوري، لكن السورية في فنه، هي الصفات الشرقية، سواء كانت في اختصار أو جمع الصفات المتراكمة من السومريين إلى أيامنا الحاضرة. وتضاف إلى هذه الصفات، مجموعة من الأسئلة الكبيرة حول الانتماء وحول معنى الخصوصية الحضارية. ففي الوقت الذي نتأمل فيه وجوه مروان التي عمّرت لوحاته من البداية إلى النهاية، نقرأ فيها دون أي شك كل الصفات التي حملتها الأقونات البيزنطية، وكل الصفات المختبئة التي حملها فن المنمنمات العربية. هي نفسها هذه الوجوه نقرأ فيها الأساليب التشكيلية التي عرفتها الحركة التعبيرية الغربية. هكذا، استطاع مروان أن يحقق هذه اللحظة التاريخية التي التقى فيها فنان شرقي مع الفن الغربي من دون أن يخسر صفاته الخاصة ومن دون أن يكون تابعاً أو منتمياً إلى هوية أخرى... هذه الحداثة التي نخسرها الآن في حياتنا الفنية. لذلك ستبقى لوحات مروان شاهداً على أن الفن يستطيع أن يوحد ما لا توحد السياسات والحروب.

* تشكيلي وشاعر لبناني

حامك هموم العرب

* محمد الرواس *

استطاع الوصول بالفن العربي إلى المستوى العالمي، وتجربته ليست رائدة على صعيد الفن التشكيلي في أوروبا وتحديداً ألمانيا فحسب، بل وصل أثرها إلى أن شكّلت هذه التجربة مدرسة في الفن

وحدات سردية وإيقاعية، تنهض على ثنائية التناقض والنبذ، الغياب والحضور، الحياة والموت، كما أنها تنطوي على رؤى متناقضة، تجد تجلياتها القصوى في وجوهه المنهوبة، وألوانه الداكنة والكثيفة والمشبعة للتعبير عن عمق مأسوي أصيل. لا جواب نهائياً في أعمال مروان، فالسطوح تخضع للمحو المستمر، كما لو أنها جرف صخري تحت وابل من مطر اللون الكثيف. عدا الوجوه التي تشبهه في أحوال متعدّدة لا تخلو من نرسيسية، كما لو أنها مفكرة لونيّة للمنفى، التفت هذا الملون المتفرد في مرحلة لاحقة إلى رسم وجوه أصدقائه، خصوصاً عبد الرحمن منيف. هنا سنكتشف انكسارات وجهه الصحراوي، إذ يغلب اللون البني والأحمر الداكن بما يشبه صحراء مثلومة بالألغان، كما سيلتقط في بورترية أدونيس ذلك القلق الحسي والصوفي المبتوث في نصوصه الشعرية، وسيختزل نحول وجه بدر شاكر السياب بلطخات انفعالية تعبّر عن الأمل المتراكمة. هناك تخطيطاته المائبة أيضاً، تلك التي أهداها إلى أغلفة روايات عبد الرحمن منيف، وفقاً لتصوراته الذاتية العميقة لشخص صاحب «مدن الملح». غاب «أنتي اللون» بعيداً من الجحيم الدنيوي إلى معراج آخر. ربما علينا أن نستعيد ثنائية حكاية من بدأ حياته عاملاً في مصنع للجلود في برلين، قبل أن يطا عتبة «المعهد العالي للفنون الجميلة» في برلين عام 1963، لينقش لاحقاً سجادة لونيّة مشبعة بالضوء، أو بساط ربح يجول بين أكثر من متحف عالمي.

دون أن تضع ردة الفعل الساعية أو حرية العمل. من النادر جداً أن أرى في هذه الأيام التزاماً ومعاونة كما أراها في أعمالك». أفرحني كتاب الصديق وخاصة أن يكلف رسام نفسه كتابة رسالة مثل هذه صادقة إلى رسام آخر. نكتب ونرسم لمن يحب أن يرى (...).

اليوم يرثي المجتمع الفني المعلم العالمي مروان قصاب باشي، لكن قلب مروان كان يبكي فلسطين والعراق: «... ونحن على أبواب القرن الجديد وعجائبه الكاوبابوية البربرية من طيارات وصواريخ وأوروبا الكلب الصليبي المطيع للقارة الجديدة خلف محيط الظلمات في تنفيذ حقوق الإنسان على طريقة حقوق الأكراد في تركيا، وحقوق الشعب العربي في فلسطين وما أحلى حياة الكلاب عند أهل الشمال، ما أغبى الإنسان. عندما كان الرجال والنساء يسألون أباهم لماذا صمتوا أو مشوا مع النازية، يأتي الجواب بانهم لم يكونوا يعرفون... وأنا أقول لرجال اليوم أنتم تصفقون وتهللون للقتال والصواريخ الإنسانية في حرب الشرف والدفاع عن حقوق الأقليات الإسلامية المذبوحة) شأنكم شأن أبائكم من النازيين أو ممن ساروا معهم ببأس وحماس وفرح... أشعر يا عبد الرحمن بكثير من الغضب والياس أمام وحشية أميركا والعالم الجديد» (رسالة مروان إلى منيف بتاريخ 25/4/1999).